

المعاني الحسنة في سيرة محمد

للأستاذ محمد عبد الله التمان

كلما حلت ذكرى ميلاد محمد — صلوات الله وسلامه عليه — حرص كثير من الوعاظ وخطباء المحافل أن يحوِّطوا شخصيته بهالة من الخوارق إبان مولدها، مستغلين عواطف الجبهة من السذج والبسطاء، لاصطناع الألفاظ المنمقة، والمبارات المجوعة، التي تستثير مشاعرهم، وتستنطق ألسنتهم بتأوهات الإعجاب والاستحسان وتكرى الطيبة، بعد أن تلقى آلاف الخطب في المساجد والسرادات. فلا يخرج المسلمون منها إلا بالتواقة التي لا ترفع من قدر صاحبها (ص) وإذا سألتهم ماذا حفظتم من ذكرى رسولكم (ص) أجابوك عن ظهر قلب: إن ليلة مولده اهتز إيوان كسرى، وخذت نيران فارس، وانشقت الأرض عن نور سد ما بين الخافقين،

وفتحت أبواب الجنة، واغلت أبواب جهنم، وازينت السماء، وابتهجت الملائكة ... وإن أمه بنت وهب لم تجد مشقة في وضعه، وسمعت هتافات الملائكة تبشر بمقدم الوليد الجديد، وإن مرضعته حليلة قد در لبنها يوم أن نسلته، وأن النعامة كانت تظله حينما سار، وأن الأحجار قد كلت، والحصى قد سبغ بين يديه، والجزع حن له .. وما إلى هذه من الأفاصيص التي تليق بالأبطال الخرافيين — لا بشخصية كشخصية محمد (ص) الإنسان الذي هيا للإنسانية أطيب حياة، والمصلح الذي وضع أسس الإصلاح في الأرض، والعظيم الذي قدم للعالم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله إلى لا أعجب .. كيف نجعل — نحن المسلمين أتباع محمد — شخصيته هذا الجبل الفاضح، فبينما يرى النصفون من المستشرقين في شخصه — رجلا مصلحا من عظام الفلاحين، يكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق؛ وفتح لها طريق الرق والندية؛ وهو عمل لا يقوم به إلا رجل أوفى قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام

على الأقل تمشيا مع منطق العصر؛ إن لم يكن تمشيا مع منطق الإسلام

والمجموعة الآسيوية الإفريقية تحاول أن تكون كتلة محايدة. ولا ضير من السير معها، وإن كنت أنا شخصا لا أرى أن هنالك مقومات حقيقية ودائمة لقيامها. فهناك تيارات مختلفة تتحاذيها. والمصالح التي تربط بينها اليوم مصالح مؤقتة. أما الكتلة التي يمكن أن تقوم على أسس حقيقية وعميقة ودائمة فهي الكتلة الإسلامية، وهي آتية لا ريب فيها على الرغم من جهود «العالم الحر» وجهود «الديمقراطيات الشعبية» فلنعجل بقيامها فهي سندنا الحقيقي الوحيد

سبر قطب

إن بعضنا يؤثرون أن يتجمعوا تحت الراية العربية ... وأنا لا أعارض في أن يكون هذا تجمعا وقتيا يهدف إلى تجمع أكبر منه، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الإسلامية إذا نحن فهمنا القومية العربية على أنها خطوة في الطريق. إن أرض العرب كلها جزء من أرض الإسلام، فإذا نحن حررنا الأرض العربية فإننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الإسلامي، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير.

والمهم أن نتجمع اليوم ونتساند كما يتساند العالم الحر ضدنا. فكل بلد صغير لا يستطيع وحده أن يكافح عالما. والسياسة القصيرة النظر التي تريد أن تحصرنا في حدودنا الجغرافية المصطنعة هي سياسة حققاء؛ فالعالم يسير نحو التكتل في الشرق والغرب سواء. ومن واجبتنا أن نتكتل

ونحتفل بذكراه ، فالواجب أن نستشف المعاني الحية التي تضمنتها رسالته ، والتي تهض بأمتنا وهي في ميسر الحاجة إلى النهوض ، فما المعاني الحية التي تضمنتها رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ؟

إن رسالته تضمنت معاني ثلاثة حية : تحرير العقول ، وتحرير النفوس ، وتهيئة حياة طيبة لهذه النفوس فقد كانت العقول قبل رسالته غارقة في خضم من الضلال والظلم ، وأي دليل على ضلالها وغياها أوضح من عكوفها على عبادة حجارة صماء ، لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، وما أن جاءت رسالة محمد حتى أخذت على عاتقها تحرير هذه العقول ، وانتشالها من هوة الضلال والظلم ، إلى أفق النور والهداية ، وراحت بالنطق السليم تناقش عقيدتها حتى ثبتت فسادها :

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أشالكم ، فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين - ألم هم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون - إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين - والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون - وإن تدعهم إلى الهدى لا يسمعون ، وترام ينظرون إليك وهم لا يبصرون » الأعراف

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب - ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » الحج

« وأنخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . » الفرقان

والإكرام .. بينما يرى الأجانب في محمد المصلح العظيم ، نأني نحن أتباعه إلا أن نضفي على سيرته من الخوارق والتوافه التي تبين مدى جهلنا بشخصيته

وإذا تركت جانبا هذا الصنف المشغوف بالصاق الخوارق بسيرة محمد ، وجدت صنفا آخر من المسلمين مشغوا بأن يجعله فوق مستوى البشر ، وأنه رسول ليس ككل الرسل ، لأنه أفضلهم على الإطلاق ، ولأنه إمامهم ، ورسالته مستمدة من رسالته ، ولأن الله ناداهم بأسمائهم وناداه بصفاته ، وما إلى هذه من الترهات الرخيصة . ولو فقه هذا الصنف النبي شخصية محمد كما يجب أن تفقه ، لأدرك أن محمدا نفسه لم يقر تفضيله على غيره من إخوانه الرسل ، لأن في هذا لونا من التعصب الذي لا يرتضيه لأتباعه ؛ فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : « بينما رسول الله (ص) جالس جاء يهودي ، فقال : يا أبا القاسم ! ضرب وجهي رجل من أصحابك . فقال : من ؟ قال : رجل من الأنصار . قال : ادعوه ، فقال : أضرته ؟ قال : سمعته بالسوق يحلف ، والذي اسطفى موسى على البشر ! قلت : أي خبيث ! على محمد (ص) ؟ فأخذتني غصبة ضربت وجهه . فقال النبي (ص) لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تشق عنه الأرض ، فإذا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صحت أم حوسب بالصمعة الأولى ؟ »

وهناك صنف ثالث منصف في سلك الطرق الصوفية البلهاء ، يعتبر أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا اعتقد أن نور الكون مستمد من نور محمد ، وأن السماء والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والجبال ، كل هذه لم تخلق إلا من أجله ... وهذا الصنف أتفه من أن نقيم لعقليته وزنا

إن محمدا صاحب رسالة إنسانية ، فإذا أردنا أن نحتفي

كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم...
والسلم أخو السلم ، والمسلمون إخوة ... » ، وقال : « ليدعن
قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا غما في جهنم ! أو ليكون
أهون على الله من الجمelan التي تدوف بأنفها القنر . » ،
وغضب حين سمع أباذر يعير خادمه بأمة السوداء ، وقال :
« يا أباذر ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل
من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . »

بهذه القوة الكامنة في رسالة محمد (ص) أمكن تحويل
الإنسان من عبودية الإنسان ، وإزالة التفاوت المصطنع
الذي كان يشرف على استئناعه الرضى بالفرور والكبرياء
من ذوى الأحساب والأنساب والأموال ، كما أمكن صيغ
الجميع بصيغة المساواة الخالصة ، فتيسر وضع أسس الاستقرار
فوق الأرض

ورسالة محمد (ص) هيأت للنفس حياة طيبة . ولما
كان العلم هو الدعامة التي يرتكز عليها بناء النهضة في
الأمم ، فقد احتضنت رسالة محمد العلم ، ودعت إليه ، وحثت
عليه ، وأكرمت قدره ، وأعلت منزلته ، والقرآن الكريم
تنطق آياته بتقدير العلم وإعزاز شأنه :

« ... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،
إنما يتذكر أولو الألباب » الزمر

« ... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم
درجات .. » المجادلة

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يئث الحكمة ، فقد
أوتى خيرا كثيرا .. » البقرة

بل إن القرآن دفع الناس إلى الناصرة في سبيل تحصيل
العلم ، وإلى مواصلة التحصيل منه إلى أن يشاء الله ، لأن
العلم بحر لا ساحل له ، ولأنه أفق بعيد لا نهاية له ، وهذا
الدفع من شأنه أن يجعل الإنسان يقف نفسه على البحث
عن كنوز العلم وذخائره :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ،

بهذا المنطق السلي . استطاعت رسالة محمد ، أن تحور
العقول ، وتوجهها إلى عبادة الواحد القهار ، الخالق الرازق ،
والضار النافع ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، والغالب
على أمره الذي لا يعجز شيء في الأرض ولا في السماء

ورسالة محمد حررت النفوس بعد أن وضعت حدا
لاستعباد الإنسان للإنسان ، فقد كانت الحياة قبل بعثة محمد
(ص) مزيجاً من الممجية والفوضى ، وأبرز ما فيها
العصية القبلية ، فالقبائل الكبرى تتعاضد بآبائها وتفخر
بأجدادها ، وتتشدد بأنسابها وأحسابها ، أما الضعفاء
والهزل ، فهم كية مهلة ضائعة ، لا وزن لها ولا قدر ،
ولا يعابى بكيانها ولا يكثر لوجودها ، يستخرون كما تسخر
الأنعام ، ويمشون عيش الرقيق السلوى الإرادة ، وما أن
جاءت رسالة محمد حتى أعلنت أن الناس جميعاً قد خلقوا من
نفس واحدة وعنصر واحد ، ومنتسبون جميعاً إلى ذكر
وأنتى ، لتقرر مبدأ المساواة بينهم ، حتى يظلوا بعد اليوم
سواسية كأسنان المشط ؛ وراح القرآن يقوم بمهمة تقرير
هذا المبدأ الخطير الدقيق :

« يأياها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس
واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا
ونساء .. » النساء

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر
تنتشرون . » الروم

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. »
الحجرات

والرسول (ص) لم يدع فرصة تمر دون أن يكافح
عنجهية الجاهلية الأولى ، ويحطم شوكة الفرور الذى كان
يملاً أنوف المتعاضدين بآبائهم ، المتشددين بأنسابهم وأحسابهم ،
فقد صاح ذات يوم في قريش قائلا : « يا معشر قريش ،
إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكثرها بآبائها ،

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . « الإسراء

« ... وقل رب زدني علما . » طه

والرسول (ص) يشير إلى هذا المعنى فيقول :

« لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد

علم فقد جهل . »

وهناك شبهة صاغتها عقول أولئك الذين أصيبوا بعمى في بصائرهم ، وغل في صدورهم ، يقولون : إن الإسلام يكرم العلم الخاص بالدين فحسب ، ويتجاهلون أن الإسلام إنما يكرم العلم أيا كان نوعه ، ما دام يعتبر وسيلة لتفقه المسلمين في دنياهم ، وإلا فأى داع إلى أن يشير القرآن إلى علوم الفلك والتقويم ، والزراعة والتجارة ، وعلم الأحياء وعلوم النبات ؟ وأى داع إلى أن يحضنا على التفكير في خلق السموات والأرض والشمس والقمر وما إليها ؟ وكيف نكون خير أمة أخرجت للناس ، إذا لم يكن العلم رائدنا في حياتنا ، وهدفنا في دنيانا .. ولكن من أنى لنا أن نقنع هؤلاء

الذين لا يؤمنون ولو آتيناهم بكل آية .. ؟

وبعد — فإن رسالة محمد — صلوات الله وسلامه

عليه — لأسمى من أن تكون قصصا للتسلية ، وهي تتضمن

أمثال تلك المعاني الحية الثلاثة ، التي تناقلها المسلمون عنها ،

وهي جدية بأن تبرز في حياتهم حتى ينقلوا إلى الأفق

اللائق بهم . والعجيب أن هذه المعاني الثلاثة ، قد تضمنتها

أول آية نزلت من كتاب الله تعالى ، إذ وجهت الناس إلى

الخالق الجدير بالعبادة لتحرير العقول ، وأشارت إلى أنهم

مخلوقون جميعا من عنصر واحد لتقرر مبدأ المساواة فتحرر

النفوس ، كما أشارت إلى العلم تقديرا له ، لينقلوا إلى حياة

حياة بواسطته :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من

علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان

ما لم يعلم . » محمد عبد الله السامح

التفسير الواضح

للمؤستاذ محمد محمود هجباري — من علماء الأزهر

تفسير عصري . جمع بين خيري القديم

والحديث مع السهولة في العبارة

والوضوح والتبويب

ظهر منه إلى الآن عشرة أجزاء — نحن الجزء

٥ قروش — يطلب من دار الكتاب العربي

بالقاهرة (ش) فاروق والاسكندرية ميدان

الغديو إسماعيل — ومكتبة وهبة (ش)

إبراهيم ١٤ بالقاهرة — ومكتبة عبد

الجواد بالقازيق ومكتبة أبو المظنطا

ظهرت الطبعة الجديدة

من كتاب

في أصول الأدب

للاستاذ أحمد حسن الزيات

من موضوعاته الأدب وحفظ العرب من تاريخه ، العوامل

المؤثرة في الأدب ، التقاعد عند العرب وأسباب ضعفهم فيه ،

تاريخ حياة ألف ليلة وليلة ، أثر الثقافة العربية في العلم والعالم

الرواية المرحية والملاحمة وتاريخهما وقواعدهما وأقسامهما

وكل ما يتصل بهما ، وهو بحث طريف يبلغ نصف الكتاب

منه خمسة وعشرون قرشاً عدا أجرة البريد